

بيير فيلليه

في اليوم الرابع والعشرين من شهر أكتوبر الماضي كان قطار من القطر آتيا الى باريس من مدينة كان ، فأنحرف عن طريقه وسقطت القاطرة ومهاجرات اربع في هوة عميقة ، وكثر الجرحى والقتلى ، وكان بين الذين حملتهم عربات الاسعاف الى مستشفى قريب فأت في آخر النهار عالم أديب من علماء الفرنسيين وأدبائهم هو الاستاذ بيير فيلليه ، ولم تكده الصحف تذيع نعيه حتى وقع من قلوب الادباء المثقفين الفرنسيين موقعا ألياً .

وقد طلبت مجلة العالمين الى الاستاذ جوزيف بدييه مدير الكوليج دي فرانس واستاذ الفقيه ان ينمى في كلمات قصيرة الى قرائها في العالمين قبل رغب ما بقلبه من الحزن . وكتب صفحات مؤثرة ترجمها فيما يلي :

كان بيير فيلليه صاحب الآثار الادبية القيمة ضريراً كما يعلم كثير من الناس . أصابته هذه الآفة بعد مولده بقليل ، ولكنه لم يرض قط ان يشير في اثر من آثاره التاريخية الى هذه الآفة ، وكان يكره ان يشير اليها في مقدمة من مقدماته على انها تلة من التعلات او معذرة من المعاذير . وكان يصدر في ذلك عن رأى له فضله في كتابه « عالم المكفوفين » . كان يرى في هذا الكتاب عزاء لامثاله انهم ليسوا بحال من الاحوال مغلقين كما يقول الناس ، وان ليس هناك ميدان من ميادين العمل الاجتماعي او العقلي يؤخذ عليهم ويغلق من دونهم . وان آفتهم يمكن ان تضايقهم ولكنها لا تستطيع ان تعجزهم عن العمل والانتاج ، لا يحتاجون في ذلك الا الى أن تكون قلوبهم قوية صلبة . وان أشد آلامهم ، او قل المهم الوحيد ، لانهم لا يرون ، اما يأتيهم من هذا الاشفاق الظالم الذي يختصم به المبصرون . وقد اراد دائماً ان يعامل في مهنة التي كان يحترفها كثيره من الاساتذة ، وفي كتبه التي كان يعلمها كثيره من المؤلفين كما يعامل غيره من الناس ، فينقد ويحكم على آثاره في غير رعاية ما بأنه ضرير .

أوجب على الآن أن أطيع أمره وأحترم كبريائه هذه ؟ لا . فان الموت قد أتى هذا الامر . وإذا كان من الحق ان آفته هذه هي التي بعثت في نفسه أقوى الفضائل وأحقها أن تكون قدوة ومثلاً ، فاني أستطيع أن أقول ان هذه الآفة نفسها هي التي منحت

حياته وآثاره نصيبها الموفور من الجمال ، وكل من قرأ هذه الكلمات سيشر بأن لا أقول هذا إشفاقاً وعظماً ، بل حناناً وإكباراً ولاجل أن أجد في نفسي أصول هذا الحنان والاكبار يجب أن أرجع بالذاكرة الى عهد بعيد . دخل بيير فيلليه مدرسة المعلمين العليا في سنة ١٩٠٠ ، وكنت حينئذ معلماً فيها . كان قبل ذلك تلميذاً ينشأ في معهد العميان الالهلي ، ثم اختلف الى غير مدرسة من المدارس الثانوية في باريس . ثم اقترح المسابقة لدخول مدرستا على نفس القواعد والشروط ، وفي نفس المواد التي يستحق فيها غيره من المبصرين ، لا يميزه منهم الا أنه كان يستعين بقلمه من ثقافته وعلمه ، فكان هذا الغلام يحدث له في المعاجم ، ويكتب ما يملئ عليه . فنصح نجاحاً حسناً . ونستطيع أن نتصور ما أدركنا نحن الاساتذة من القلق ، وما أدرك رئيسنا الطيب القلب جورج بيرو . كنا نتساءل ماذا نصنع بهذا الغلام الحدث الذي كان يحسن فنون البيان في اكبر الظن ، ولكنه كان ضئيلاً نحيلًا ضريراً . الى أي نحو من أنحاء العلم نوجهه ؟ والى أي غاية نسره ؟ ولا سيما وقد كان يقول إنه لا يحب التاريخ وتاريخ الآداب خاصة ، ولكن كيف كان يعرف هذا النوع من العلم ؟ كنا ننظر الى كتبه المكتوبة بالخط البازو والتي اصطاحها حين اقبل اليها . فكنا لانجد الا ديوان فرجيل وبعض الآثار الفرنسية الكلاسيكية ، وبعض كتب النحو ، ومع ان هذه الكتب كانت تزحم غرفته فانها لم تكن في حقيقة الامر الا شيئاً يسيراً جداً مما يستعين به التلاميذ . ماذا كان يتصور من أمور البحث التاريخي ومصاعبه ؟ الم يكن حقاً علينا أن نوجه الى نحو من أنحاء هذا البحث العقلي الذي يمكن ان يعتمد فيه الباحث على تفكيره الخاص ، فان صاحب ما بعد الطبيعة أو الاخلاق أو المنطق أو فقه اللغة ، يستطيع الحد ما أن يعتمد على نفسه . فكان علينا اذن أن نبين له الى أي حد يعرض نفسه لحية الأمل إن مضى في طلب التاريخ ، وأن نحذو هذه الآمال التي كان يعمل نفسه بها . ولكن رأيت الحاجة وحزنه ، فاعتزمت سرّاً أن أخضعه لامتحان لا يعلم به أحد .

فكلفت أن يهيئ بحثاً عن أسطورة من أساطير لافونتين ، وهي أسطورة الطحان وابنه والحمار ، ليلقيه في محاضرة قريية . فقبل بحزونا لأنني كنت قد كلفت رفاقه بأبحاث اخرى أوسع من بحثه وأبغظم خطراً ، وكانت يحس اني كنت أريد أن أحصره دائماً في التمرينات المدرسية التي كانت قد شبع منها حتى أدركته التخمّة قيل ان يدخل مدرسة المعلمين ، ولم يكن يطعن الى هذا الموضوع الا حين انبأته بأن استاذي سباستون باري قد خصص

له صفحات عشر في بحثه المعروف عن القصص الشرقي واثره في الادب الفرنسي . وكنت اكايفه ان يدرس هذه الاسطورة ، لاني صورتها بين اساطير لافوتين ، بل في صورها الكثيرة التي اختلفت عليها . ولم أدله الا على هذا المرجع ثم انتظرت :

وبعد ستة اسابيع او بعد شهرين القى الدرس الذي طلب اليه . فباله من دهش عم رفاقه في قاعة المحاضرات ! وباله من فرح ملا قلبي ! فانه لم يكتف كما كان غيره يكتفي بالتفكير في هذه النصوص الخسة أو السة التي رواها جاستون باري : فقد اهدى لأدري من أى طريق الى مجلة « بنى » (الشرق والغرب) حيث كان (جودوك) قد أخذ منذ سنة ١٨٩٠ يسجل مجموعات من الاساطير الشعبية ، وما هي الا ان أراه قد استطاع ان يستكشف نصوصا عشرة أهمها جاستون باري عمدا أو خطأ . هنالك اعلنت مكيدتي وهي ان اعرض على هذا الطالب الجديد ايسر بحث في ظاهر الامر ، هذا البحث المهد المطروق لآتين من أمره ما أريد ، ولأعلم أكتفى بإعادة ماقرا ، أم يحاول أن يأتي بشئ جديد ، ويبت رفاقه مضاعف هذا البحث عن الاساطير . وقد كان الناس كلنين به في ذلك الوقت ، وبيت لم ما يحتاج اليه الباحث المجدد من الجهد والاستقصاء لاستكشاف الصور المختلفة لهذه الاساطير في كتب غامضة مهجورة ، ثم أنبأهم بأن جهدا خصباً منتجا للاستقصاء العلمى قد ظهر في هذا اليوم .

ومالى أطليل الوقوف عند هذه القصة كما في أريد أن أتحدث عن نفسى ، ذلك لأبين اولا كيف كانت الحياة قديما في مدرسة المعلمين : كيف كانت صورة لمن صور التعاون بين الاصدقاء ، يعطى الاساتذة فيها من انفسهم اكثر ما يستطيعون إعطاءه ، ولكنهم يأخذون من طلابهم مثل ما يعطون ، ثم لأن بير فيليه كثيرا ما كان يذكرني بهذه القصة فيما بعد ، في ذلك اليوم اعلن بعض الطلبة المتقدمين الذين لم يسبقهم كثيرون انه مؤمن بهذا الشاب الضريع واثق بفوزه في هذا النوع من البحث الذى يميل اليه .

ولكن هذا الشاب — بير فيليه — وجد في الوقت نفسه بين اسانذته ورفاقه من اعانه على قطع هذه الطريق . وكان منهم الظريف (بير موريس ماسون) والجاد (جبريل لير) وكلاهما سقط في ميدان الشرف اثناء الحرب الكبرى ، ومنهم بول ازار ، وأوجين البريتني ، وراشيه ، وموريت ، وبير كومير ، ولويس ريو ، والكسندر جوانو ، وآمي برنو ، وجاك شيفاليه ... وكما أحب أن أسميهم جميعا هؤلاء الاصدقاء الذين كانوا مثله في سن العشرين ، والذين أعطوه واخذوا منه احسن المثل وأقومها . بهذه التجربة وتجارب أخرى

أما لما أنت بير فيليه أثناء الاعوام الثلاثة التي قضتها في المدرسة أنه كان قادرا على الهوض باعلاء الاستقصاء العلمى وبأقلها وأشدّها تعقيدا .

ومن هنا دهشت البيئات العلمية ، ولم ندهش نحن حين أظهر في سنة ١٩٠٨ ، بعد أن ظفر بأجازة الأجر بمجاسيون . وبعد أن أتم دراستي في معهد تير في ظل اميل بوترو الذى لقيه أحسن لقاء . كتابه الاول الذى عرض فيه مصادر كتاب موتيني — Essais de Montaigne — وتطور فصوله .

وكان قد فكر في هذا الكتاب اثناء إقامته في مدرسة المعلمين ، وشجعه على ذلك الأستاذ جوستاف لنسون ، ولأجل أن يبلغ من هذا البحث ما يريد ، بدأ فنسخ كتاب موتيني بيده خطا بارزا فكانت نسخته تساع عشرين مجلدا . ثم وضع حكم موتيني وتجاربه في قصاصات من الورق ، وكانت هذه القصاصات التي رتبها على حروف المعجم تملأ صندوقا ضخما لم يفارقه أعواما طويلا . وكذلك تسليح هذه الادوات وحفظ كتاب موتيني عن ظهر قلب على اختلاف نسخته ، ثم أخذ يبحث عن مصادره . فمن أراد أن يقدر هذه المحاولة فللا حظ ما أحاط بها من الظروف . فقد كان يجب أن يقرأ عليه كل المؤلفين الذين نقل عنهم موتيني ، وكل المؤلفين الذين كان يرجح أن موتيني قد عرفهم في التراجم اللاتينية التي كانت معروفة في عصره ، مثل سكستوس أميريكيوس ، كريستوفون ، ديوجين ، لارس ، أفلاطون ، وفي التراجم الفرنسية المعروفة في ذلك الوقت تيودور الصقلي ، هيرودوت ، أريانوس ، وفي النصوص الأولى من لوكريس الى فاليريوس مكسيموس ، أى كل ما كتبه روما القديمة تقريبا . ثم ما كتبه علماء النهضة من إرسم الى جوستايس . واذن فقد بذل بير فيليه جهده هذا في قراءة ألف من الكتاب ، ويمكن أن تقدر غنيته المادية من هذا الجهد اذا نظرنا في الجزء الرابع من طبعته لكتاب موتيني التي ظهرت سنة ١٩٢٠ ورأينا المراجع وقد رتبها على حروف المعجم بثمانية آلاف مرجع تصل بأربعمائة من المؤلفين كتبوا بالبرنانية واللاتينية والايطالية والفرنسية .

وبنحو هذه الطريقة وبمعمونة طائفة من القراء كانوا يعيرونه أبصارهم اعارة آليسة استطاع أن يتبع تأثير المؤلفين والكتاب بموتيني ، فظهر كتاب موتيني ولوك وروسو ، ثم موتيني ويكيون ، ثم موتيني واللاهيين الانجليز . هذه عنايات لطائفة من أبحاثه ظهرت ككتاب أو رسائل . وهذا النحو من اظهار استعارة المؤلفين